كيف تكون ناجحًا
في معاملة الوالدين

كيف تكون ناجحًا في معاملة الوالدين[1]

أحب العمل إلى الله بر الوالدين:

لقد أمر الإسلام ببر الوالدين وجعل برهما أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام بعد الشهادتين؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «**الصلاة على وقتها**». قال: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**»[2]. بل قرن الله تعالى الإحسان إلى الوالدين بعبادته وتوحيده.

وكما أمر الإسلام ببر الوالدين وقرنه بعبادة الله فقد حرَّم عقوق الوالدين وجعله من أكبر الكبائر وقرنه بالإشراك بالله؛ قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ... الإشراك بالله، وعقوق الوالدين ...**»[3].

فالرجل الذي يريد النجاح في معاملة الوالدين يجب عليه اتباع ما أمر الله ورسوله به من برهما وتجنب ارتكاب ما نهى الله ورسوله من عقوقهما؛ وقد أرشد

---

(١) راجع: تفسير الآيات في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ص: ١٠/٥، ١٢٠/٥-١٥٥، ١٦١، ١٤/٤٣-٤٥. وفي ظلال القرآن لسيد قطب، ص: ٤/٢٢٢١-٢٢٢٢، وفتح الباري للعسقلاني، ص: ١٠/٤٠٣-٤٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب البر والصلة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر.

الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ إلى الطرق التي ينجح فيها الرجل في معاملة الوالدين وبرهما فقال الله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

أما قول الله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر وألزم وأوجب.. أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده وجعل بر الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]. والمعنى: قلنا له أن اشكر لي ولوالديك. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية. وقال سفيان بن عيينة: من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.. قال العلماء: فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة له والإذعان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره وهما الوالدان.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر؛ فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. فالوالدان يحملان أذى ولدهما وهو صغير راجين حياته، والرجل إن حمل أذى والديه في كبرهما رجا موتهما.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.

وأيضًا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالَّة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهر بتنفسه المتردد من الضجر.

وقد أُمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ فأول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب، أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم، حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ؛ وقد قيل: لو علم الله من العقوق شيئًا أردأ من «أف» لذكره. وإنما صارت قولة «أف» للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، وجحد التربية ورد الوصية التي أوصاه في التنـــزيل. و «أف» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: «أف لكم ولما تعبدون من دون الله» أي رفض لكم ولهذه الأصنام معكم. قال رسول الله ﷺ: «**رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة**»[1]. فالسعيد الذي يبادر اغتنام فرصة برهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك. والشقي من عقَّهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرهما.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النهر: الزجر والغلظة. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات**»[2]؛ قيل: خص الأمهات بالذكر وإن كان عقوق الآباء عظيمًا لأن عقوقهن أقبح أو إليهن أسرع من الآباء لضعف النساء، ولينبه على أن

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر.

بر الأم مقدم على بر الأب في التلطف والحنو ونحو ذلك. فهو من تخصيص الشيء بالذكر إظهارًا لعظم موقعه؛ قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾[١]؛ فقد قاست الأم بسبب حمله مشقة وتعبًا من وحم وغثيان وثقل وكرب وأرق وتغيرات نفسية وبدنية إلى غير ذلك مما تناله الحامل من التعب والمشقة، ووضعته بمشقة أيضًا من الطلق وشدته وآلام الولادة ومعاناتها، ثم أرضعته وهو في سن الرضاعة وقامت على خدمته ورعايته وتعبت وسهرت ليلها في ذلك.

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مَن أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**» قال: ثم مَن؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»[٢].

وقال النبي ﷺ: «**رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد**»[٣]؛ لأنه تعالى أمر أن يطاع الأب ويكرم، فمن امتثل أمر الله فأطاع والده وأكرمه فقد أطاع الله فرضي عنه، ومن خالف أمر الله فأغضب والده وأهانه فقد أغضب الله فغضب عليه، وهذا فيما ليس في معصية الخالق. وهذا وعيد شديد يفيد أن العقوق كبيرة. وقال ﷺ: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه... وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه...**»[٤].

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٥٤٩.

(٤) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٣٠٧١.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وهي مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشي بالإكرام والاحترام؛ أي قولاً لينًا لطيفًا، مثل: يا أبتاه ويا أماه، من غير أن يسميهما ويكنيهما؛ قال عطاء. وقال ابن البداح التجيبي: قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته إلا قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ هنا يشف التعبير ويلطف، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان. فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينًا، ولا يرفض أمرًا. وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانًا بالسلام والاستسلام. فهذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده.. فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الرجل نفسه مع أبويه في خير ذلة، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يُحدّ إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ فهي الذكرى الحانية، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان، وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع، ورعاية الله أشمل، وجناب الله أرحب، وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء. فقد أمر الله تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم.

طرق أخرى لبر الوالدين:

ومن البر بالوالدين والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ قال رسول الله ﷺ:

«**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟، قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[١]؛ فإن كان التسبب إلى لعن الوالد من أكبر الكبائر فالتصريح بلعنه أشد.. وقوله: (وكيف يلعن الرجل والديه) هو استبعاد من السائل؛ لأن الطبع المستقيم يأبى ذلك، فبيَّن في الجواب أنه وإن لم يتعاط السب بنفسه في الأغلب الأكثر لكن قد يقع منه التسبب فيه وهو مما يمكن وقوعه كثيرًا.

ومن الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما؛ فقد قال رجل للنبي ﷺ: أجاهد؟. قال: «**لك أبوان**»؟ قال: نعم. قال: «**ففيهما فجاهد**»[٢].

ومن برهما أن ينفق عليهما إذا احتاجا، فقد قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله! إن لي مالاً وولدًا، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال ﷺ: «**أنت ومالك لأبيك**»[٣].

ومن برهما بعد موتهما الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم للولد إلا من قبلهما. وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قربى.

وعلى الرجل الذي يريد النجاح في معاملة والديه ومن ثم النجاح والفلاح

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لا يجاهد إلا بإذن الأبوين.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٨٥٥.

في الدنيا والآخرة وكسب الأجر العظيم من الله تعالى أن يشفق بهما ويتذلل لهما تذلل العبيد للسادة.. وأن يترحم عليهما ويدعو لهما، وأن يرحمهما كما رحماه ويرفق بهما كما رفقا به؛ إذ ولياه صغيرًا جاهلاً محتاجًا فآثراه على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا واشبعاه، وتعريا وكسواه، فلا يجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كان فيه من الصغر، فيلي منهما ما وليا منه، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم. وليتذكر الرجل شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، ليزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما. قال حكيم رحمه الله: راع أباك يرعاك ابنك.

وإذا كان الله عزَّ وجلَّ قد أمر ببر الوالدين والإحسان إليهما، فقد نهى في الوقت نفسه عن طاعتهما إذا كانا مشركين وأمرا ولدهما بالشرك أو بمعصية الله، فقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾[1]. فطاعة الوالدين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق ومصاحبتهما في الدنيا بما يحسن.

كذلك إذا كان الوالدان مسلمَين وأمرا ابنهما بمعصية الله فلا يلزمه طاعتهما؛ وإذا كان لا بد من ضرب المثل لتقريب المقصود فأقول: إنه في كثير من الحالات يكون الوالدان مواظبان على الصلاة وبقية أركان الإسلام ومع ذلك يأمران أو يأمر أحدهما ابنه مثلاً بعدم إطلاق لحيته، أو حلقها إذا كان قد أطلقها؛

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

فهنا لا يجوز له طاعتهما؛ لأنهما يأمران بمعصية ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ وهكذا الأمور الأخرى فلا يجوز له أن يفعل ما حرمه الله تعالى إرضاءً لوالديه وطاعة لهما؛ لأن الطاعة إنما تكون في المعروف كما قال النبي ﷺ، أو طاعتهما في المباحات التي ليس فيها معصية لله عزَّ وجلَّ.

وعلى الرجل أن يعلم أن الله تعالى يعلم ما النفوس، قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾[1]؛ فيعلم الله عزَّ وجلَّ ما بنفس الولد من اعتقاد الرحمة بالوالدين والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برهما رياء. وقال ابن جبير: يريد البادرة التي تبدر، كالفلتة والزلة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأسًا؛ ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة، وقد وعد الله تعالى بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٥.